دور الكلمة والفكر في مواجهة الإرهاب

د. صياح عزام

■ في الوقت الذي كان الإرهاب يضرب ضربته في برج البراجنة في بيروت، كان مركز دراسات الوحدة العربية يعقد الجلسة الختامية لندوته الشاملة تحت عنوان (مستقبل التغيير في الوطن العربي)، منتقلاً من تحديد مخاطر التفكيك وتحليله إلى الاستراتيجيات البديلة، انتهاء بمحاولة الإجابة عن السؤال المركزي: إلى أين؟ نحو خطة طريق للخروج من المأزق العربي).. وكأنه جاء لتأكيد أمرين:

الأول- أن هذا الأفق العربي مازال بخير رغم كل العراقيل والانسدادات.

الثاني- أن مكافحة الإرهاب يجب ألا تقتصر على الشق الأمني، رغم أهميته، وإنما يجب على النخب الثقافية أن تؤدي دورها بفعالية من الناحية الفكرية وتقدم الرد والعلاج عبر الكتاب والمطبوعة ووسائل التواصل الاجتماعي، وعبر التأثير في صياغة البرامج التربوية والثقافية.

معروف أن الجدل العام يبدأ دائماً في الدوائر الضيقة ثم يخرج بعد ذلك إلى الساحة العامة، وهذا ما حصل في بلاد كثيرة.

إن هذا الجدل العام قد عرف العبور إلى الساحات العربية في القرن الماضي، لكنه اصطدم بعوائق التسطيح والتتفيه والتجهيل، ما أفسح المجال لانتشار الفكر الأصولي السلفي بمداه الأقصى الإرهابي التكفيري، وظهور بعض عوامل الإحباط والهزيمة القومية، خاصة بعد سحق الأقطار العربية، بدءاً من فلسطين وانتهاء بالعراق، وصولاً إلى التدمير والتخريب في بعض الدول العربية التي ضربها (طاعون الربيع العربي) بقوة لصالح ضياع الهوية، لتتشكل في مثل هذه الأجواء التي أوجدها سيكولوجية التوتر التي تحدث عنها أكثر من عالم اجتماع، مؤكدين أن الفرد يعيشها حتى ولو لم يعِها.

باختصار أدى هذا الربيع العربي الذي ضرب بعض الدول العربية منذ خمس سنوات إلى ظهور التعصب المجرم، وتكفير الآخر، وإلى فراغ الفكر، وفراغ الفكر هذا أدى إلى انعدام الحوار، وبالتالي إلى كراهية الآخر إلى حد تصفيته جسدياً كما تفعل داعش وجبهة النصرة وأخواتهما تحت عباءة الإسلام.. كذلك يؤدي غياب الحسّين الوطني والقومي إلى التفكك ولجوء الأفراد الذين يتمتعون بمستوى ضعيف من الوعي والثقافة إلى انتماءات تجزيئية يدمر واحدها الآخر أو إلى انتماءات انفلاشية تبحث في جمع الشراذم ويأتي من يوظف كل هذه الانتماءات في استراتيجيات وبرامج تفكيك الوطن العربي، ويصل الأمر بأصحاب هذه الانتماءات التجزيئية التي كان للدوائر الأمريكية والغربية والإسرائيلية الدور الأساسي في إيجادها ودعمها وتمكينها، إلى درجة الخروج على القيم الإنسانية وعلى الحياة نفسها عبر ارتكاب المجازر والجرائم الفظيعة وغير المسبوقة.

من هنا تأتي أهمية المؤسسات الثقافية التي يجب أن تقاوم كل ذلك، من خلال الحوار والعمل على بناء النموذج من جديد على قاعدة التآخي وقبول الآخر والثوابت الوطنية والقومية، مع التركيز على الشباب.

بالطبع كل هذا يتطلب تحضيراً جدياً مسبقاً، ويتطلب في الوقت نفسه تأمين الإمكانات المادية اللازمة للنشر والترجمة وإصدار الأبحاث العلمية الأصيلة والهادفة إلى تحصين الشباب ضد عمليات الغزو الفكري والثقافي المتواصلة من الغرب بشتى الوسائل والطرق التي تستهدف الأجيال العربية الشابة وتوجيهها بالاتجاه الذي يخدم استراتيجيات ومصالح الغرب وعملائه.

إن ما هو مطلوب من النخب الثقافية في المؤسسات الثقافية والتربوية في الدول العربية أن تمارس مسؤولياتها في التصدي لموجات التكفير والتفكيك، وذلك عبر التنوير والفكر والكلمة، علّها تستطيع إعادة التوازن لآلاف من مرضى النفوس ممن انخرطوا في هذه الانتماءات الشاذة، وفي الوقت نفسه للذين يرسلون التبرعات السخية للمنظمات الإرهابية التكفيرية التي ابتُليت بها بعض الدول العربية.

أخيراً، قد يقال إن الكلمة والفكر والحوار كلها لم تعد قادرة على مواجهة الإرهاب، وهذا ما يأتي في إطار التيئيس وتعميق دوافع الإحباط ومظاهره لدى الناس، ولا يخرج عن إطار الحرب النفسية الموجهة ضد العرب والتي يعمل بها وعليها مئات من مراكز الأبحاث ومن المتخصصين في مجال هذه الحروب النفسية المدمرة التي تستهدف زرع بذور اليأس في أذهان الناس، لكن من الماء ما يفيض وينحسر، ومنه ما ينسلّ بهدوء ويحفر أخاديده العميقة في جوف الأرض.

الأمريكيون ورثة الإنجليز في قيادة الجماعات السلفية

بولس سركو

■ كانت بريطانيا وفرنسا قد دعمتا خلال ثلاثينيات القرن العشرين نشوء الممالك والإمارات التابعة لهما في شبه الجزيرة العربية على قاعدة (الحماية مقابل الامتيازات والمصالح الاقتصادية والسياسية). وبعد مشروع مارشال استحوذت الولايات المتحدة الأمريكية – التي يعتقد بعض منظريها أنها أمة محاطة بالعناية الإلهية – على الحكومات الغربية مع أتباعها في شبه الجزيرة (مبدأ أيزنهاور) كما ورثت عن الإنجليز خبرتهم الفائقة في إدارة الحروب السرية، فحين خاطبهم الرئيس أيزنهاور قائلاً: نحن في حاجة إلى خطة مكيافيلية تساعد للوصول إلى شكل للشرق الأوسط يصب في مصلحتنا (كان يشدد على التحالف المقدس في وجه الشبح عن طريق نسج شبكة من العلاقات الاستخبارية تربط بين الأمريكيين وحكومات الغرب وعدد من الحكومات العربية وجماعات الإسلام السياسي، وقد سارع جون فوستر دالاس وزير خارجيته بالإيعاز لأخيه ألن فوستر دالاس رئيس وكالة المخابرات المركزية لتطوير خطط وليم دونوفان المعتمدة أساساً على استراتيجية وضعها برنارد لويس، المفكر الأمريكي المتخصص في الشؤون الإسلامية، وتعتمد على تشجيع الحركات الإسلامية في الدول العربية ودعمها، كسلاح ضد النفوذ السوفييتي، وكان في العام نفسه الذي تأسست فيه وكالة المخابرات المركزية ١٩٤٧ قدم فيليب أيرلند السكرتير الأول للسفارة الأمريكية في مصر رشوة مالية كبيرة لحسن البنا، وصاغ معه الاتفاق على معاداة الشيوعية وحركات التحرر الوطني عموماً، ووافق حسن البنا. وقد أكد صحة هذه المعلومة محمود عساف الذي شارك في اللقاء وكشف تفاصيله في كتابه (مع الإمام الشهيد حسن البنا) كما أكدتها الوثائق المفرج عنها من مكتب التحقيقات الفدرالية cia وبمساعدة هذه الوكالة حسب تلك الوثائق أوفد صهر حسن البنا (سعيد رمضان) وهو أحد رجاله الأوفياء لإنشاء فروع لتنظيم الإخوان المسلمين في كل من الأردن وسورية ولبنان والضفة وغزة وعدد من الدول الغربية، علماً بأن الالتباس واضح في الوثيقة المذكورة بخصوص مهمة سيد رمضان في تلك الدول، فهي على الأغلب كانت لتحديد وجهة تلك الفروع حسب تعليمات السيد الأمريكي، وذلك لأن هذه الفروع كانت موجودة أصلاً منذ ثلاثينيات القرن الماضي مثلاً في سورية عبر العائدين من دراسة الشريعة من مصر، وقد نظمها وأعلنها مصطفى السباعي (جماعة إخوان مسلمين) معادية للعلمانية والتيارين القومي والماركسي عام ١٩٤٥. وفي إطار الدعم وتوفير الغطاء السياسي رتب جون فوستر دالاس مؤتمراً عام ١٩٥٣ في جامعة برينستون، حضره عدد من قادة الإخوان المسلمين من عدة دول عربية، ومع العلم بأن سورية لم تصبح شيوعية في أي يوم من الأيام، لكنها بقيت من أكثر دول منطقة الشرق الأوسط استهدافاً من قبل الحلف المقدس، إذ يؤكد محمد حسنين هيكل في مقارنة بين الموقفين المصري والسوري وردت في مقالاته في جريدة الأهرام بتاريخ ٢٤/٨/١٩٥٧ بعنوان (دالاس يقرع الطبول) هذه الحقيقة موضحاً سببها المباشر فيقول: (حين وجهت واشنطن تهمة الشيوعية لمصر وسورية،لم تفعل مصر إلا أن نفت عن نفسها التهمة بهدوء)، أما الجواب السوري فقد نقله هيكل عن لسان قائد الجيش السوري اللواء عفيف البزري واصفاً إياه (كانفجار اللغم)، حسب تعبيره فقد رد على سؤال: إنهم يتهمونك بالشيوعية؟ قائلاً: وليكن... ما هو شأنهم بذلك؟ ولماذا يتدخلون في صميم شؤوننا الداخلية؟ ويفسر هذا الجواب (القرار الوطني السوري المستقل) الذي تمسّك به تحالف البعث والشيوعيين السوريين كجزء أساسي من أسباب تركيز الحلف المقدس على الهدف السوري، كما أن الكثير من الوثائق المكشوفة تؤكده، منها على سبيل المثال ما كتبه هيكل أيضاً في الأهرام بتاريخ ١٩٥٧/٩/١٦ نقلاً عن المتحدث باسم الخارجية الأمريكية (لنكولن هوايت) أن اهتمام الولايات المتحدة بالموقف في سورية واتجاهها إلى معالجته بالحزم والشدة يرجع إلى أن عدداً من جيران سورية العرب أبدوا للولايات المتحدة الأمريكية انزعاجهم الشديد من تطورات الأحداث في دمشق وطلبوا منها اتخاذ إجراءات عاجلة لمواجهة الموقف (ومما يؤكد ذلك أيضاً المدى العملياتي على الأرض، فمحاولات إسقاط دمشق لم تتوقف حتى اليوم، بدءاً بتحريك الأسطول السادس الأمريكي باتجاه ميناء اللاذقية إلى المؤامرات المتتالية والموثقة والتي كان المال العربي شريكاً فيها، كما كان دور جماعة الإخوان المسلمين هو الأبرز في هذه المؤامرات. وتتحدث وثيقة مارك كيرتس عن أن كان عميل المخابرات المركزية الأمريكية السابق (روبرت بيار) أكد أن الولايات المتحدة وافقت على تمويل السعودية لنشاط الإخوان و(في إطار التعاون بين الشركة الأمريكية للبترول (أرامكو) والسلطات السعودية قامت المخابرات الأمريكية برعاية تأسيس خلايا دينية في السعودية معادية لحركة القومية العربية) كما تتحدث الوثيقة عن رشاً قدمتها السعودية لضباط سوريين، لإسقاط طائرة الرئيس جمال عبد الناصر وكذلك لإسقاط الحكم الوطني في سورية (يمكن مراجعة كل التفاصيل المتعلقة بالمؤامرات على سورية والدول والشخصيات المشاركة فيها وحجم الأموال التي رصدت لها ومصدرها في كتاب (أوراق من دفتر الوطن..١٩٤٦-١٩٦١) لسامي جمعة ضابط المخابرات السورية الذي كان مطلعاً على أدق تفاصيل تلك المؤامرات).

في الستينيات أسس الملك السعودي فيصل منظمة المؤتمر الإسلامي (١٩٦٩) في إطار سعي واشنطن لحصار الشبح الأحمر، وكانت المخابرات الأمريكية قد نقلت عشرات ملايين الدولارات إلى سعيد رمضان الذي ترأس في مدينة ميونخ الشبكات الدولية للإخوان المسلمين وكتب دستورها، وكانت السلطات السويسرية تنظر بعين الرضا إلى أنشطته المعادية للشيوعية، وتؤكد الوثائق أنه كان عميلاً للبريطانيين والأمريكيين وكذلك ترد في الوثائق أسماء عملاء آخرين بارزين في الخلايا الإسلامية المتشكلة في أوربا ومنهم (أبو حمزة) و(أبو قتادة).

أواخر السبعينيات كان الأمريكيون يطلقون على الإرهابيين الإسلاميين العرب الذين أرسلتهم السعودية لقتال السوفييت في أفغانستان (المقاتلين من أجل الحرية) وكان عميل cia (قلب الدين حكمتيار) رئيس الحزب الإسلامي الأفغاني يرتب الاتصال بين عملاء cia وأسامة بن لادن في مركز الوكالة السري في مدينة بيشاور على الحدود الباكستانية الأفغانية، وكانت الوكالة تقوم بعمليات التمويل والتدريب والمد بالسلاح وحتى تسهيل تجارة المخدرات لبن لادن ورجاله، كما كانوا يتلقون التمويل أيضاً من الجمعيات الخيرية من الدول الخليجية كافة، وبعد خروج السوفييت وفي إشارة إلى استمرار العلاقات بين الحلفاء التقى عام ٢٠٠١ وكيل المخابرات المركزية في الإمارات (لاري ميتشل) وبصحبته مسؤول كبير في المخابرات السعودية بن لادن في المشفى الأمريكي في دبي، وبقيت العلاقات مستمرة إلى أن انقلب السحر على الساحر في ١١ أيلول ٢٠٠١.

في الثمانينيات والتسعينيات وبعد النجاح الذي حققه الحلف المقدس بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية في فرض هيمنته الاقتصادية والثقافية، وخاصة بعد انهيار المنظومة الاشتراكية، رسخ الإعلام في وعي الناس آفاق الحتمية التي نشرها فوكوياما بأن التاريخ انتهى بانتصار الرأسمالية وضرورة عولمة النموذج الغربي وترافق ذلك مع حتمية تحريضية أخرى لهانتنغتون أمّنت أن يحل صراع الحضارات محل الصراع الطبقي، ولم تلبث أن بدأت تشتعل نار الأحقاد الدينية والعرقية والإثنية وتمزق المجتمعات من داخلها وتفتت الدول، ويحتل المركز الرئيسي اليوم في هذا الصراع الإسلام السياسي، الأداة الغربية الأشد شراسة وعنفاً ووحشية.

المراجع:

■ كتاب مارك كيرتس (العلاقات السرية - التحالف البريطاني مع الإسلام السلفي).
■ مقالات محمد حسنين هيكل في الأهرام.
■ كتاب جون برادوس (حروب الرؤساء السرية).

لماذا كان ماركس محقاً؟! (٣٧)

■ في الماركسية، لاشيء تجاوزه الزمن أكثر من الإصرار على فكرة الطبقات. ويبدو أن الماركسيين لم يلاحظوا أن طبيعة طبقات المجتمع، منذ أيام ماركس حتى يومنا هذا، قد تغيّرت بشكل لا يمكن الإحاطة به، وخصوصاً أن طبقة العمال التي حلموا بأنها ستنتقلُ البشرية إلى رحاب الاشتراكية، لم يعُد لها أثر يُذكر. فنحن نعيش الآن في مجتمع تلعب فيه الطبقة دوراً جدّ ضئيل، لأنه في حركة دائبة، كما أصبح فيه النداء إلى صراع الطبقات أمراً مستغرباً، كالدعوة إلى إحراق الهراطقة فوق كومة من الحطب. فالعاملُ الثوريّ، وكذلك الرأسماليّ ذو القبّعة الأنيقة، ليسا سوى وليدي خيال كارل ماركس.

رأينا أن الماركسيين يعانون مشكلات مع مفهوم الطوباويّة، وهذا هو أحد الأسباب التي تمنعهم من القول بأن مجتمع الطبقات قد أصبح من الماضي، فقط لأن بعض رؤساء مجالس الإدارة يتجوّلون أحياناً بأحذيتهم الرياضية، ويسمعون الموسيقا الصاخبة، ويتباسطون في الحديث إلى أقصى درجة مع موظّفيهم. فالماركسية لا تعرِّف مفهوم الطبقة بالاستناد إلى أسلوب الحديث أو الوضع العائلي أو الدخل أو المهنة أو نوع اللوحات المعلّقة على الجدران. ولم يكافح الاشتراكيون من رجال ونساء طيلة قرون ولم يموتوا في أحيان كثيرة من أجل إلغاء القَرْحَة.

يبدو أن المفهوم الأمريكي classism، (ويقصد منه الإهانة بالاستناد إلى الانتماء الطبقي، إضافة من المترجم) يشرحُ بوضوح أن مفهوم الطبقة أساساً هو مسألة موقف ووجهة نظر. وبعد ذلك، ليس على الطبقة الوسطى البرجوازية سوى أن تكفّ عن احتقار طبقة العمال، كما على البيض أن يتغلّبوا على ازدرائهم للأمريكان من أصل إفريقي. أما في الماركسية، فلا يتعلّق الأمر بموقف أو وجهة نظر. ليست الطبقة في الماركسية كالفضيلة عند أرسطو مسألة شعور، بل مسألة فعل. ويتعلّق الأمر عندئذ بالمكانة التي يحتلّها الإنسان في طريقة الإنتاج. هل هي مكانة العبد أو الفلاح المستقل أو مستأجر الأرض أو صاحب (الرأسمال) أو المانح أو بائع قوّة عمله أو المالك الصغير إلخ....؟، ولم تصبح الماركسية عتيقة، لأن خرّيجي معهد (إيتون) لم يعودوا يستخدمون تعابير مبهمة للتعريف عن أنفسهم، أو لأن أمراء القصر الملكي يتقيؤون في قارعة الطريق أمام النوادي الليلية، أو لأن بعض أشكال الفروق الطبقية الأقدم لم تعد تصمد أمام المساواة النقدية العالمية. كما يمكن للأرستقراطية الأوربية أن تحصد الامتنان على تعاملها الودّي مع Mick Jagger(مغنٍّ بريطاني ومؤلّف أغانٍ، إضافة من المترجم)، إلا أن ذلك لم يجعلنا نتقدم خطوة واحدة باتجاه المجتمع الذي لا يعرف الطبقات.

لقد سمعنا الكثير عن الاختفاء المزعوم للطبقة العاملة. لكن قبل أن نعود إلى مناقشة هذا الادّعاء، نطرح السؤال عن أمر لا يلقى عادة اهتماما كبيراً، وهو انهيار الشريحة العليا من الطبقة الوسطى. وكما يلاحظ بيري أندرسون فقد انقرض تقريباً رجال ونساء من أمثال الشخصيات التي وصفها مارسيل بروست وتوماس مان بشكل لا يُنسى. وعلى العموم أصبحت الطبقة الوسطى، كما عرفها بودلير أو ماركس أو إبسن أو رامبو أو غروس أو بريخت أو حتى سارتر أو أوهارا جزءا من الماضي.. ومع ذلك، على الإشتراكيين ألا يهلّلوا لهذه النعية بصوت مرتفع، لأن أندرسون يتابع قوله:

(لقد حلّت محلّ ذلك السلّم التراتبي الثابت أشكال عديدة من المهن المتداخلة وغير الثابتة من مخطّط ومدير ومدقّق حسابات وآذن وطاقم إدارة ومُضارب، ممّن يعمل في خدمة الرأسمال الحديث: وهي وظائف في عالم المال الذي لم يعد يعترف بأكابر المجتمع أو الهويات الموثوقة).

من طبيعة الرأسمالية أنها تُزيل الفروق وتحطّم التراتبيّة وتخلط طرق العيش المختلفة بشكل كامل. لا يوجد طريقة عيش أكثر اختلاطاً وتعدداً. لكن عند السؤال عمّن يجب استغلاله الآن، يبرهن النظام الرأسمالي على أنه من محبّي المساواة بشكل يدعو للعجب، فهو يكره التراتبية كالمطلع الورع على أسرار ما بعد الحداثة، ذو قلب كبير يتّسع للجميع كقسّيس مساعد أنكليكالي، يجتهد في عدم استثناء أحد، ويرحِّب بالجميع، حيث يحقق الربح: بالأسود والأبيض، بالطفل والعجوز، من سكان الحيّ الفخم (Wakefield) أو سكان قرية فقيرة في سومطرة، ليطحنهم في طاحونته دون أية أحكام مسبقة إطلاقاً. فالقولبة على شكل بضائع هي التي تحقق أكبر مساواة، وليست الاشتراكية. ولا يهم البضاعة المدرسة التي تعلّم فيها مستهلكُها المحتمل أو ما إذا كان حسيباً عريق الأصل أم لا. والبضاعة هي التي ترغم الناس على نوع من التشابه الذي عارضه ماركس بشدّة، كما رأينا سابقاً.

من المفروض ألا نفاجأ بأن الرأسمالية المتقدّمة تشيع وهم اختفاء الطبقات. وهذا ليس فقط واجهة يخبّئ النظام خلفها عدم المساواة الحقيقية الكامنة فيه، فهذا من طبيعة الأمور. لكن، هناك تناقض صارخ بين التعامل اللطيف في المكاتب الحديثة، ونظام كوني يزداد فيه عمق الخندق بين الفقير والغني، أكثر من أيّ وقت مضى. من الممكن أن تحلّ مؤسسة لا مركزية، غنية بالمعلومات، وتراعي أصول العمل الجماعي، محلّ التراتبية التقليدية في بعض الفروع الاقتصادية، إلا أن ذلك لا يُخفي أن الرأسمال يتمركز في أيد قليلة أكثر من الماضي، وأن عدد الناس المعدمين والمُفقَّرين يزداد في كل ساعة. وبينما يلبس رئيس مجلس الإدارة بنطال الجينز فوق (بوط الرياضة)، يعاني يومياً أكثر من مليار إنسان من سكان كوكبنا من الجوع. والمدن الكبيرة في الجزء الجنوبي من الأرض ليست سوى جحور نتنة مكتظّة بالسكان تترعرع فيها الأوبئة والأمراض.

ويشكّل سكان هذه الأحياء الفقيرة ثلث سكان المدن على مستوى العالم، بينما يشكل سكان المدن الذين يعيشون تحت خط الفقر نصف سكان العالم. وفي هذه الأثناء يحاول بعض المتحمّسين حماس المبشّرين في الغرب توطين الديمقراطية الليبرالية في باقي أرجاء العالم، وذلك في زمن يتعلّق فيه مصير العالم بحفنة قليلة من الشركات الموجودة في الغرب والتي لا همَّ لها سوى إرضاء مساهميها.

ومع ذلك، ليس الماركسيون ضد طبقة الرأسماليين، كمن يمكن أن يكون ضد الصيد أو التدخين. فكما رأينا، لم يُكبر أحد مثل ماركس منجزات الرأسمالية الرائعة. كانت هذه المنجزات برأيه ضرورية لخلق الاشتراكية: مقاومة عنيدة ضد الاستبداد السياسي، مراكمة هائلة للرأسمال واعدة برخاء عالمي، احترام الفرد، احترام حقوق المواطن واحترام الديمقراطية، تضافر عالمي حقيقي، إلخ...، وكان المقصودُ الاستفادة من تاريخ الطبقات، وليس فقط نبذها. وكما أوضحنا، لم يكن النظام الرأسمالي قوّة هدّامة فقط، بل كان أيضاً قوّة تحرّرية. وتسعى الماركسية أكثر من أي نظريّة أخرى أن تنظر إلى الرأسمالية دون أيّ تحيّز، وذلك على عكس المدائح الفارغة من الطرف الأول واللعنات المبالغ فيها من الطرف الآخر.

تُعتبر الطبقة العاملة من الهدايا الرائعة التي أعطتها الرأسمالية للعالم، من دون قصد، وهي قوّة اجتماعية لا يستهان بها تكافحُ بصلابة من أجل حقوقها لدرجة أنها قادرة على استلام السلطة، من حيث المبدأ. وهذا أحد الأسباب التي جعلت لبَّ فهم ماركس للتاريخ ساخراً، إذ لا يخلو الأمر من فكاهةٍ مرّة أن يلد النظامُ الرأسمالي حفّار قبره.

لا تركّز الماركسية على الطبقة العاملة لأنها تعتبر العمل شيئاً فاضلاً. فاللصوص وأصحاب المصارف يُجهدون أنفسهم أيضاً، إلا أن ماركس لم يهتم بهم، كما هو معروف. (علماً أنه كتب مرّة عن اقتحام أحد اللصوص لبيت مّا، فكانت قصة رائعة سخرت من نظرية الاقتصاد التي وضعها بنفسه). لقد رأينا أن الماركسية تريد إلغاء العمل قدر الإمكان، ولم تُعر للطبقة العاملة تلك الأهمية الخاصة، لأنها كانت ربّما المجموعة الاجتماعية المظلومة أكثر من غيرها فقط. فهناك العديد من المجموعات الاجتماعية المظلومة التي ربّما تعاني من العوز أكثر من أي عامل متوسط من مهاجرين ولاجئين وطلاب وكبار في السن وعاطلين عن العمل - وفاقدي الأمل في أيّ فرصة عمل. ولا ينسى الماركسيون الطبقة العاملة في اللحظة التي يحصل فيها العمال على بيوت تحتوي على حمّامات ونوافذ ذات زجاج ملوّن. المهمُّ في الماركسيّة هو أكثر من ذلك بكثير، وهو أن هذه الطبقة تحتل موقعاً مركزياً في طريقة الإنتاج الرأسمالية. فلا أحد يستطيع استلام قيادة هذا النظام لصالح الجميع سوى أولئك العاملين فيه، العارفين مجراه، المؤهَّلين والمنظّمين في قوّة جماعية واعية سياسياً، لا يمكن التخلّي عنهم لضمان سلامة أدائه، ولهم مصلحة مادّية حقيقية في تغييره. فلا أيّ بطرك خيِّر ولا أي نشطاء من خارج النظام يستطيعون القيام بذلك من أجلهم، مما ينجم عنه أن اهتمام ماركس بالطبقة العاملة، وهذه كانت الغالبية العظمى من الشعب في أيامه، مرتبط ارتباطاً وثيقاً باحترامه العميق للديمقراطية.

أعطى ماركس الطبقة العاملة تلك الأهمية القصوى لأنه رأى فيها، من بين أمور أخرى، حامل لواء التحرّر العالمي، وهو يقول في هذا المجال:

إن تشكيل طبقةٍ ذات قيود راديكالية، طبقة وسطى، وهي ليست طبقة وسطى، بل تعني إلغاء جميع الطبقات، طبقة تملك طابعا عالمياً بسبب آلامها العالمية، وليس لها حقّ خاص، لأنها لا تتعرّض لألم خاص، وإنما تُرتكب بحقها الآلامُ كلُّها، إن تشكيل هذه الطبقة لا يتحدّى التاريخ، وإنما الإنسان فقط، وبكلمة واحدة إنه ضياعُ الإنسان والاسترجاع الكامل للإنسان. إنه انحلال المجتمع في طبقة خاصة هي البروليتاريا.

تأليف: تيري إيغلتون
ترجمة: ماجد داوود
إيرينا داوود